سعدي الشيرازي

في بلاد الشام

إن من يتتبع آثار هذا الشاعر العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها ، يستطيع أن يستخلص تاريخ حياته بسهولة مما تركه بين أيدي الناس يتداولونه ويتدارسونه فيما بينهم ، معجبين مأخوذين بهذه العبقرية الفذة التي لا يجود الزمان بمثلها إلا في فترات قليلة بين حقبة وأخرى من الدهر بعيدة المدى متطاولة الأمد . وإن الذين أرخوه وعنوا بآثاره استخلصوا تاريخ حياته من دواوينه الشعرية ومن نثره الساحر خصوصاً في كتابه الخالد گلستان وفي ديوانه الفاتن بوستان .

أما اسمه الكامل فهو الشيخ مشرف الدين بن مصلح الدين السعدي ، ولقب بالسعدي نسبة الى (الأتابك أبي بكر سعد بن زنگي) الذي أعانه في شبابه على طلب العلم في بغداد والذي أغدق عليه نعمه أيام شيخوخته في شيراز . ويدل على ذلك ما أورده في مقدمة گلستان بهذا العنوان ما ترجمته :

محامد ملك الإسلام خلد الله ملكه

لقد وقع جميل ذكر السعدي بأفواه الأعوام ، وتغلغل صيته بآفاق البسيطة لما أبداه من بليغ الكلام ، وذاق الناس من حديثه المقطر ما يشبه حلاوة السكر ، ورفعوا رقع إنشائه الى رتبة الأوراق الذهبية ، ومع كل ذلك فلا يليق به أن يحمل هذا على فضله وبلاغته الأدبية ، بيد أن ملك الأوان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقطب دائرة الزمان ، القائم مقام سليمان ، الناصر أهل الإيمان ملك الملوك المعظم الأتابك الأعظم مظفر الدين أبو بكر سعد بن زنكي ظل الله في أرضه ، رب ارض عنه وأرضه ، لما لحظه بعين عنايته ، وأيده بليغ رعايته ، وأظهر له صادق إرادته ، كان ذلك الاحترام ، موجباً لإقبال كافة الأنام ، من الخواص والعوام ، ولا جرم « فالناس على دين ملوكهم » .

ويحدد مولده بعام ٦٠٦ هـ للبيت الذي أورده في گلستان إذ يقول :

ای که پنجاه رفت ودر خوابی مگر این پنجروز دریابی

يا مذهب الخمسين بالنوم سدى أيامك الخمس قريبة المدى

ويحدد زمن تأليفه گلستان هذان البيتان :

مثنوی

دران مدت که ماراوقت خوش بود زهجرت ششصد وپنجاه وشش بود

مرادما نصیحت بود وگفتیم حوالت برخدا کردیم ورفتیم

رجز

ما بين رقمي سنة ضع خمسة تجد بتاريخ الكتاب بهجة

لقد أردنا النصح في هذا العمل ما خاب يوماً من على الله اتكل

ويحدد شمس الدين سامي في قاموس الأعلام التركي تاريخ وفاته بعام ٦٩١ هـ والدكتور رضا زاده شفق في قصة الأدب الفارسي يقول : وتوفي الشيخ بين سنة ٦٩٠ هـ وسنة ٦٩٤ هـ في شيراز ودفن بها .

(رحلته الى بغداد لطلب العلم)

رحل في عنفوان شبابه الى بغداد لطلب العلم فيها أيام اضطراب بلاد فارس ، قبل سنة ٦٢٣ هـ وقد كانت بغداد في ذلك العهد نجمة الرواد من أهل العلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقبلة القصاد ، فحضر فيها دروس أساتذتها كالشيخ شهاب الدين السهروردي وهو من كبار رجال الصوفية وأبي الفرج بن الجوزي وأمثالها . وقد كان من نتائج هذا السفر ومن التقائه بعلماء بغداد وعظمائها أن كان لكل هذا تأثير لا حد له في نفسية شاعر شاب وفي أفكاره كذلك .

ثم عاد السعدي بعد بضع سنوات من تحصيله في هذه المدينة الى موطنه في إيران وقد تعرض الى هجمات المغول فتأثرت نفسيته ورغب أن يطوف العالم ويجوب نواحيه ، فقام في رحلات طويلة واستقر به المطاف في دمشق فأقام فيها واعتكف بجامعها ، وجوب في بلادها وعاشر أهلها من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، واختلط بالعلماء والصوفية والسنيين والملاحدة وقد تزود من كل ما تحمله أفكارهم .

(متى وجد السعدي في بلاد الشام)

إن من الحق علينا أن نعنى عناية فائقة بالتعرف على الزمن الذي وجد فيه هذا العبقري الخالد في بلادنا والذي هجر دياره وآثر الإقامة في ديارنا فعاشر أسلافنا وجاورهم ، وأقام ردحاً من الزمن بين ظهرانيهم يفرح لفرحهم ويحزن لترحهم ، حتى اضطر في النهاية الى هجر دمشق العزيزة عليه في سنة ٦٤٣ هـ كما يغلب على ظني حين ابتليت بالقحط والفلاء والجراد وجفاف مياه العيون والأنهار ، فرثاها أبلغ رثاء وبكاها أحر بكاء ، وخرج منها هائماً على وجهه في صحراء القدس ، فأوقعه سوء حظه أسيراً بيد الافرنج ، وستمر بنا قصته بكاملها في نهاية البحث .

والآن أعرض عليك أيها القارئ الكريم ترجمة بعض الحكايات التي ورد ذكر بلادنا فيها معتمداً على كتابه گلستان وعلى ديوانه بوستان وبالله التوفيق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(اعتكافه بجانب تربة يحيى عليه السلام)

اعتكفت في بعض السنين بجانب تربة يحيى عليه السلام بالمسجد الجامع بدمشق ، واتفق أن جاء للزيارة أحد ملوك العرب وكان معروفاً بعدم الإنصاف ، وبعد أن صلى وتضرع لقضاء حاجته . (بيت)

أخو البؤس والمثري فقير ببابه وأكثرهم مالاً أشد له فقرا

التفت إلي وقال : من هذا المقام الذي هو مبعث همة الدراويش وصدق معاملتهم وجه الخاطر بمرافقتي فإنني في تفكر ووسواس من عدو لي صعب المراس . فقلت له : ارحم ضعف رعيتك حتى لا ترى صعوبة من قوة عدوك .

قطعة

أبقوة في ساعديك ولكمة بالجمع تخضد شوكة الضعفاء
خف إن وقعت ولم تجد لك راحماً أو من يمد إليك كف ولاء
من يزرع الفعل القبيح ويرتجي طيب الجنى يحصده شر جناء
فإلي ألق السمع واعدل في الورى أو لا فيوم الحشر يوم جزاء

رجز

الناس كالأعضاء في التساند خلقهم من كنه طين واحد
اذا اشتكى عضو تداعى للسهر بقية الأعضاء حتى يستقر
إن لم تغم لمصاب الناس فلست إنساناً أخا إحساس

(رجل من صلحاء جبل لبنان في جامع دمشق)

دخل إلى جامع دمشق رجل من صلحاء جبل لبنان وكانت له في بلاد العرب مقامات مذكورة وكرامات مشهورة ، ولما جلس على طرف بركة (الكلاسة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليتوضأ زلت قدمه فوقع فيها ولو لم تتداركه العناية لغرق . وبعد أن أدى المصلون الصلاة المكتوبة قال له أحد الأصحاب : أيها الشيخ عندي مشكل. فقال الشيخ : وما ذاك ؟ فقال : أذكر أنني كنت رأيتك تمشي على وجه بحر المغرب ولم تبتل لك قدم . واليوم كدت أن تغرق بما لا يزيد عن عمق قامة من الماء فما السر في هذا يا ترى . فأدخل الشيخ رأسه في جيبه وبعد تأمل طويل رفع اليه رأسه وقال : ألم تسمع ما قاله سيد العالم محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» ولم يقل كل وقتي كان هكذا . وإلا لما تفرغ لجبريل وميكال ولما بنى بحفصة وزينب وغيرهما بأوقات أخرى . لأن مشاهدة الأبرار بين التجلي والاستتار تلمح فتخطف .

بيت

بحسنك تغريبني وتطلب عصمتي ونار الهوى تذكي وتأمر بالتقوى

شعر عربي لسعدي

أشاهد من أهوى بغير وسيلة فيلحقني شأن أضل طريقا
يؤجج ناراً ثم يطفي برشة لذاك تراني محرقاً وغريقا

حكاية منظومة

قالوا لفاقد طفل لا نظير له في الحسن باخير من أوذي وقد صبرا
أظهرت من بعد ذاك اليأس معجزة يكاد ينكر راويها لنا الخبرا
شممت من (ثيبس) ريح القميص وما أبصرت من جب كنعان له أثرا
فقال نحن كمثل البرق نلمحه طوراً خفياً وطوراً يخطف البصرا
فتارة لا نرى ما تحت أرجلنا كالعمي تدرأ عنها بالعصا الخطرا
وتارة غارب الأفلاك مقعدنا حتى ليزحم فيها عزمنا القدرا
ولو جرت باطراد حالنا لخلت من الحياتين كفي فاتركوا الهذرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(في جامع بعلبك)

كنت مرة بجامع بعلبك أقرر كلمات بقصد الوعظ على جماعة قلوبهم متحجرة ميتة وعقولهم لم تنصرف عن عالم المبنى الى عالم المعنى فرأيت أن أنفاسي الملتهبة لم تجذبهم الى حضيرة القرب ، ونار روحي المتأججة لم تؤثر بحطبهم الرطب ، فتأسفت أشد الأسف على ضياع تربيتي فيمن يضارع الحيوان ، وعلى وضع مرآتي المجلوة في زاوية العميان ، ومع كل هذا فقد انفتح علي باب المعنى واتسع أمامي مجال القول في هذه الآية الكريمة « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » فكنت أوصل القول الى الغرض المراد منه عن أقرب الطرق حتى قلت : قطعة

الله أقرب من نفسي إلي وإن نأيت عنه وهذا أعجب العجب
ما حيلتي ولمن أشكو هواه وقد أحاط بي ورماني الهجر بالحرب

وبينا كان سكري من خمر هذا الكلام لا يحد ، وفضلة الكأس لا تزال في اليد ، إذا بعابر سبيل مر من طرف المجلس فأثرت به تلك الفضلة ، فانتشى وصاح صيحة ردد صداها آخرون ، وأصبح المجلس يموج بعضه في بعض من الوجد فقلت : سبحان الله البعيد حاضر بالخبر ، والقريب غائب لفقد النظر .

(سؤال أحد مشايخ الشام عن التصوف)

سألوا أحد مشايخ الشام عن حقيقة التصوف ما هي فقال : كانت هذه الطائفة في غابر الزمان متفرقة في المبنى مجتمعة في المعنى ، أما اليوم فهي في الظاهر متحدة وفي الباطن متفرقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قطعة

لا ترج يوماً صفاء العيش مختليا ما دام قلبك بالأغيار يشتعل
وأنت في خلوة ما دمت مرتبطا بالله لو بنعيم الملك تنشغل

(أحد المتعبدين في ديار الشام)

روي أن أحد المتعبدين في ديار الشام عكف على العبادة في غابة سنين طويلة وكان يتغذى بأوراق الأشجار فتوجه لزيارته ملك تلك الجهة وقال له : إذا رأيت من المصلحة أن نهيئ لك مقاماً في المدينة أمرنا بتنفيذ ما تريد لأن تفرغك للعبادة فيها أيسر عليك ، وتكون الناس عندئذ قد استفادت من بركات أنفاسكم ، واقتدت بصالح أعمالكم . فلم يقبل الزاهد كلام الملك فقال له أركان الدولة : نرى من المصلحة أن توافق على ما رغب به الملك فتقيم بالبلد أياماً وترى مقامك بها ، فإن استقام لك فهو المطلوب ، وإن رأيت أن صفاء وقتك العزيز تكدر من صحبة الأغيار ، فعندئذ يكون لك في نهاية الأمر الخيار . فقيل إن العابد صدع بالأمر والتحدر إلى المدينة فهيأوا له بستاناً حول قصر الملك الخاص بغاية الزينة فكان مقاماً يبهج النفوس ، ويسر القلوب فكأنه جنة الفردوس . كما قيل فيه :

سنبله غدائر أرسلت ووردة مثل خدود الحسان
كلاهما من خوف برد العجوز ما ارتضعا من ثدي غيث لبان

شعر عربي لسعدي

وأفانين عليها جلنار علقت بالشجر الأخضر نار

وأرسل الملك اليه في الحال جارية بديعة الجمال . نظم :

فتاة كحسن البدر فتنة عابد بزينة طاووس وطهر ملاك
إذا ما بدت للزاهدين تخاذلوا عن الصبر أو طاحوا بغير حراك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأرسل إليه على أثرها غلاماً بديع الجمال لطيف الاعتدال .

قطعة من نظم سعدي

هلك الناس حوله عطشا فهو ساق يرى ولا يسقي

ليس تروى عيون ناظره كفرات حلا لمستسقي

فأخذ العابد يأكل الطعام الشهي ، ويلبس الكساء البهي ، ويتمتع بحلاوة الثمار ، ويستنشق عبير الأزهار ، ويتملى بجمال الجارية والغلام ، وقديماً قال العقلاء : صدغ الجميلة زنجير ساق العقل الخطر ونفخ طائر القلب الحذر .

بيت

صرفت عقلي ودبني في هواك وقد أصبحت نفخاً لقلبي الطائر الحذر

وحاصل القول أن دولة زهده آذنت شمسها بالأفول كما قيل : قطعة

كم من مريد وذي نسك ومجتهد وواعظ ذي بيان طاهر النفس

لما بدنيا الدنايا راح منغمساً أمسى كنحل جنى بالشهد منغمس

وذات مرة رغب الملك بمشاهدته فرآه قد تغير عن حالته الأولى فقد عاد أبيض سميناً مشرباً بالحمرة وألفاه متكئاً على وسادة من الديباج ، وغلام أحور الطرف ملائكي الطلعة قائم على رأسه يروح له بمروحة طاووسية ، فسر الملك كثيراً من حسن حاله ، وأخذ يتفنن معه بالحديث ، ويفتح له أبواباً من النوادر ، حتى قال في نهاية الكلام : أنا أحب من دنياي هاتين الطائفتين العلماء والزهاد . وكان في المجلس وزير فيلسوف مجرب فقال : أيها الملك شرط المحبة أن تفعل معروفاً مع كلتا الطائفتين . فقال الملك وكيف ذلك فقال : أن تعطي الذهب للعلماء حتى يستعينوا به على التبحر بالعلم ، وأن لا تعطي الزهاد شيئاً حتى يبقوا على زهدهم . بيت :

أخو الزهد لا يبغي لجيناً وعسجدا فإن رامه فاطلب سواه أخا زهد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(الشيخ الفارسي المحتضر)

بينا كنت مستغرقاً بالبحث مع طائفة من العلماء في المسجد الجامع بدمشق إذا بشاب دخل علينا من الباب وقال : أبينكم من يعرف اللغة الفارسية ؟ فأشار الجماعة إلي ، فسألته ما شأنك فقال : شيخ سلخ مائة وخمسين ربيعاً تركته يعالج ألم النزع وهو يتكلم الفارسية ، ولم نفهم ما يريد ، فلو أنك كلفت نفسك وذهبت معي إليه لنلت أجراً جزيلاً إذ ربما أنه يؤدي الوصية . فلم أتردد وسرنا إليه جميعا ولما جلست عند وسادته سمعته ينشد :

أريد لأنفاسي امتداداً ونسحة ... فاني وقد عيت بمخرجها أف

فمن سفرة العمر العزيز فواكها ... أكلنا ولم نشبع فقالوا لنا كفوا

ترجمت للدمشقيين معنى ما قاله بالعربية فتعجبوا من طول عمره وتأسفه على الحياة الدنيا . وسألته كيف ترى نفسك في هذه الحالة فأجاب . ماذا أقول وأنشد :

ألا ترى أي آلام تنال فتى ... من قلع ضرس أصابتها يد الزمن

فكيف ساعة النزع ماحال الشقي وقد ... سلت بها روحه قسراً من البدن

فقلت له : اطرد شبح الموت عن مخيلتك ، ولا تترك الوهم يستحوذ على طبيعتك ، لأن الفلاسفة قالوا : المزاج مهما كان معتدلاً فلا يلزم أن يعتمد معه على البقاء ، والمرض مهما كان مخوفاً فلا يمكن أن يدل دلالة قطعية على الهلاك . فلو أمرت فدعونا طبيباً لمعالجتك لكان خيرا لك فقال : هيهات وأنشد مرتجزاً :

يزخرف القصر الأمير المنعم ... والقصر من أساسه ينهدم

قد ييأس الطبيب إذ يرى الخرف ... من المريض إن مزاجه انحرف

يحتضر الشيخ لقرب الأجل ... والزوج تطليه بدهن الصندل

أجل إذا ما انحرف المزاج ... فلا الرقى تجدي ولا العلاج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(بكاؤه على دمشق للقحط الذي أصابها عام ٦٤٣ هـ)

عن ديوانه بوستان

على دمشق أتى قحط لشدته ... قد أذهل الصب عن ذكرى الأحباء
ضنت على الأرض بالغيث السماء فما ... بلت صدى نخلة أو حلق عجفاء
وما جرى فيض عين بالسفوح وقد ... جادت عيون اليتامى عنه بالماء
فكم تثير الشجى آهات أرملة ... إذا يثور دخان عند رعناء
وقد تعرت من الأوراق زاهية ... أغصانها كسليب وسط بيداء
أما الجراد فلم يترك بربوتها ... ولا بغوطتها آثار خضراء
وجاء عندي صديق كدت أنكره ... جلد على العظم من برح ولأواء
وقد عجبت له إذ كنت أعهده ... ذا قوة وأخا جاه ونعماء
سألت ذاك الكريم العرق في لهف ... ماذا دهاك أجب تفديك حوبائي
فصاح بي ياعديم الرأي تسألني ... وأنت مني أجل أدرى بذا الداء
ألا ترى كيف جاز القحط غايته ... فلم يدع قطرتي در بغرثاء
ولم تجب دعوة لله صاعدة ... ولا تنزل غيث غب شكواء
أجبته ما الذي تخشى وفي يدك الـ ... ـترياق إن كشرت أنياب رقطاء
وهل على البط في الطوفان من ضرر ... والبط مذ كان عوام على الماء
أجابني لا تكن ياذا الفقيه على ... مثلي سفيهاً فلم تأخذ بآرائي
ما راحتي إن أكن بالسيف محتجزاً ... والموج ألقى بخلي وسط دأماء
أو كان وجهي لم يصفر من عوز ... ففم من أعوزوا قد حز أحشائي
أو لم يصب لي عضو إثر جائحة ... فشقوة الناس رضت كل أعضائي
وإن أكن لم يبن جرح على بدني ... فإن جرح اليتامى في سويدائي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منغص عيش من يزهو بصحبته إذا هفا من مريض رجع أصداء
وإن يبت بائس طيا على سغب فلقمة الخبز سم الموت للرائي
أيهنأ العيش لي في ظل وارفة وصحبتي رهن سجن بين أعدائي

(نزوحه عن دمشق)

اعتراني ملل من صحبة إخواني في دمشق فخرجت هائما على وجهي في بادية القدس ، وأنست بصحبة الوحش بعد صحبة الإنس ، ولكني وقعت أسيراً بيد الإفرنج فأصبحت أشتغل بالطين مع اليهود في خندق طرابلس . حتى مر بي أحد رؤساء حلب وكان بيننا سابق معرفة فقال لي ما هذه الحال وكيف صرت إلى هذا المآل فقلت : قطعة

هربت الى الصحراء عن صحبة الورى الى الله لا أبغي سواه أنيسا
تصور بهذا الوقت ما هي حالتي مع البهم في الاصطبل صرت حبيسا

بيت

الرجل في القيد عند الأصدقاء ولا رياضة في جنان بين أعدائي

فرحمني ورق لحالي وافتداني من أسر الفرنجة بعشرة دنانير وأخذني معه الى حلب . وكانت له ابنة فعقد لي نكاحها بمائة دينار مؤجلة وبعد أن بنيت بها ظهر لي أنها سيئة الطبع مجبولة على العناد مخلوعة العنان سليطة اللسان فنغصت علي عيشي وكأنما عناها الراجز بقوله :

سيئة الخلق بدار الخير جهنم من قبل يوم المحشر
حذار من أمثالها حذار وقل : قنا رب عذاب النار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وذات مرة أطالت بي لسانها واستمرت تقول : ألست أنت ذاك الذي اشتراك أبي فأعتقك من قيد الفرنجة بعشرة دنانير فقلت : بلى هو الذي اشتراني بذلك المقدار ولكنه أوقعني بأسر يديك بمائة دينار ٠

قطعة

رأى سيد كبشا بأنياب أطلس ... فخلصه عند الأصيل من الكرب

وعند المسا سمى وأزهق روحه ... فصاحت وقد طارت الى الله ماذنبي

أيا منقذي من مخلب الذئب رحمة ... لقد كنت عقبى الأمر أنقذك من ذئب

هذا ما أردت ايراده عن هذا الشاعر العظيم في هذه العجالة وبالله التوفيق ٠

دمشق : محمد الفراتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net